شهادات الأصدقاء

في رشيد درباس عنفوان قامة نخلته وسخاء رطبها

عمر مسقاوي

أيها الأصدقاء، يقول أهل الأدب إن الإيقاع في الطبيعة هو أول الموسيقى ثم يليه الغناء يستدرج ميدان الوعي ثم يعثر على الكلمة شعرًا أو نثرًا. هكذا ينتقل الفكر الإنساني في تأمله من التجسيد إلى التجريد في الروح أولًا ثم شعرًا ونثرًا في معيار الأدب كما في الفكر وهكذا تخرج الكلمة عن مسارها إلى مدار يختزن العواطف والآمال والأحلام استشراف أمل جديد يقودها هادي الأرواح من مواكب المشاعر ثقافة وحضارة ثم يسير مركب الأيام وِقْرَ ذكرياتٍ وحنين: «**يفيض في هاتف السحر سمعًا يرقرق في حناياه الخرير**».

لكن... هذه الدنيا كما نعرفها يقول الشاعر: «**تقض المضاجع حين ينأى الخرير عن الغدير**».

ففي هزيع الليل تذكّر الشاعر الأُلى الذين ذهبوا من أصدقائه أولئك الذين أسرجوا له الليل من ناشئة فجر الغد: برعان غلاييني، رشيد فهمي كرامي، معن زيادة، مصطفى صيداوي. لقد كانوا طريقه

إلى رومانسية الخمسينيات مع العروة الوثقى وحركة القوميين العرب.

كانت «النكبة» ومعناها مَورْد النظر إلى المشكلة، وكان الثأر مسرى العمل الوطني حين يختزن الغضب على مرأى من جحافل النازحين من فلسطين كما كانوا يسمونهم.

لقد أعطت كلمتا: «النكبة» و«الثأر» مؤشرين لذلك الخرير في رجعه البعيد.

المؤشر الأول: أنه يتعامل مع المتغيرات العالمية كحدث وليس كتوقع.

المؤشر الثاني: أن قوة الحدث تدفعه إلى فوضى «الثأر» الذي هو في طبيعته أثر محسوب في منهجية الحدث. وهكذا بقي الجهد الفكري والسياسي في ظاهر الخطاب يستقل السماء صعدًا إلى فراغ انتظاري انتهت به عقود القرن العشرين وشيء من سني ما نحن فيه. ربما اختلفت الصيغ لكن «النكبة» استمرت تطاولًا واتخذ الثأر في النهاية شعار الـ«بن لادنية».

هنا استفاق وعي الشاعر على إيقاع النكبة في هزيع الليل وقد أبطأ به الفجر فترك همزة وصل إلى جيل قادم في قصيدة مجموعته «همزة وصل»:

همزتي آه من الأعماق

يائي ماطره

إنها دمعة الهوى إذ الهوى بحد

إنها دمعة القصور فيها دائمًا عزم اليقين يودعه ابنه توفيق:

أرى السالفات تجدَّد فيك فتحلو السنون
لأنك أمسي لأنك فاتني أن أكون

تلك مسيرة جيل اجتمعت في حيوية الشاعر طاب استماعنا إليها لأنها خاطت شيئًا من ذاكرتنا وفيضًا من آمالنا تخضّبها «النكبة» كل يوم بدم شهيد، إنها النكبة اليوم بعد فلسطين تهدم بغداد التي أوسعت الحضارة «لعيون المها بين الرصافة والجسر» لشهداء دائمًا على بصيرة من الغد في مسيرة الوعد الصادق. لكن الشاعر يبكي حاضره قربى اتصال بالنسب الواعد:

«**فبغداد لم تعد مدينة الرشيد**
مأمونها مطارد بكل حي
قلبي على دار السلام
قد شردوا قبورها في المنام
وابحث لجدي عن عظام»
أيها الأصدقاء».

تتميّز قصائد رشيد درباس في مجموعتيه «الرمل ديوان النخيل» و«همزة وصل»، بقوة إيقاعهما. إنهما نداؤنا الدائم لأنهما من جَهْد الحياة رسالة. وموعد لجيل قادم. إنها رحلة أطلقت جوانح الهوى لتسبق الصدى:

«**وعطرت للعاشقين... الموعد**
فأرجأ الحلم الغد».

لكن سُرى الليل في حنان الذكرى يهتف دائمًا بالأمل... إنها القضية. يؤرقه الشوق إليها حين تخلفت عولمة الحاضر عن نداء

الفؤاد فيستجدي الشاعر حنان الطبيعة في سيرته الأبدية لتمد إليه يدًا نديّة:

«أنا الحور... صُبّي حنانك في قامتي
لأرُفّ على حدقات الشجون بُهدب الفرح
وأحيا رسومًا على دفتيك
فيجري عنانك فيّ سطورا».

إنه إيقاع الزمن يبعث الوعي لكنه يبحث عن الكلمة في مسارها تعلو بخيالها إلى خيلاء النخلة عطاء رطب الحياة على مئبر ما حولها قيامة جيل مع كل مولود جديد يذكر محمد الدرة صريع الطفولة ورمز شهدائها فينادي أمه:

«فسلي عني ترابي وسلي عن الحوامل
واذكريني كلما شاهدت طفلًا يشبه الفجر النديا».

لكن الرمل ثقافة الأمل ما يزال ديوان النخيل. تجد لموعدها لتخرة من فاقة الحاضر:

«إنه يختزن الكتابة مثلما اختزن الشعور
والرمل مرساة العصور»

وإذا: **«ابن رشد فوق دكته وعلى قدميه آثار الوضوء**
والفكر لم يمسسه سوء».

فقد بوأ الفيلسوف الشريعة حسن المقال في حدود الحقيقة صدى فلسفة من الأندلس تمد عصرًا قادمًا عقلانية الأنوار فيأتي رجع صداها من بغداد الغزالي تهافت الفلسفة ويرتد الصدى تهافت التهافت كان كل منهما أن يكسر الغزالي مغزله يغزل للثقافة غزلًا

رفيعًا لكن النساج غاب حين نادى الزمن بالأفول مع ابن خلدون.
لكن ديوان النخيل لم يجف مداده:

«صوني مدادك في الوريد
ومقلة المستقبل
وذري الجنى في السنبل
فمسارب الكلمات تنبض عن دبيب الجدول
وخطوطها مبتلة بندى الزمان الأول
في غير ذي زرع سعت
وسعى لها الضيفان فاخضر السبيل
ضافت لتستقي السماء وزادُها صبر جميل
هل زمزم قلبت لها الوجه البخيل
أو لم يمن الله بالذبح البديل
والخمر هل نضبت دنان الخمر في قانا الجليل
لكننا لا نقتفي الرمل الدليل
ويح لنا... يا ويح أبناء الخيل
من قاتل يندس في جسد القتيل».

أما بعد، ما يميّز رشيد درباس أنه في شخصه وعمق روحه قصيدة رومانسية هو عنفوان قامة نخلته وسخاء رطبها اختزن العفوية والفرح في رمل الحاضر ينسج جمعنا اليوم صلة من الإيقاع استدرج وهي كل منا إلى كلمة تقدير كتبت بمداد حب نصونه في وريد الحياة ومقلة المستقبل.

رشيد درباس... «المزوّر»!؟

طلال سلمان

«هو النهر هام على مائه.
مضى يشرئب نخيلًا...
يبث عيون البلح!».

أما «هو» فرشيد درباس الذي يشرئب أمامنا نخيلًا، وهو الهائم على وجهه يتنفس من رئة القصب فتسيل لحون القلب أنينًا، وهو هو الحور، وصبي الحنان في قامته ليرف على حدقات الجشون بهدب الفرح... لكنه يشدو بعيدًا عن مدار الجاذبية، فتدير الأرض أذنًا للحزن وأذنًا للنسيان!.

... فعندما بلغ رشيد درباس سن اليأس، استذكر مسقط رأسه، عين يعقوب العكارية فعاد إليها يسقينا من مائها شعرًا سلسبيلًا يأخذ إلى الحزن بينما هو يتلوه ضاحكًا، ولكنه ضحك كالبكاء.

في الديوان القليلة صفحاته، المتنوعة موضوعاته، وفي القصائد التي تتأرجح بين «العمودية» و«التفعيلة» يسري التاريخ الشخصي لذلك الصبي الذي جاء من عين يعقوب النائية عن العين والقلب والكتاب إلى فيحاء السياسة طرابلس الشام... ولا يفعل رشيد

درباس الآن إلا قراءة ذلك التاريخ مقلوبًا فيتبدى وكأنه مكتوب بالدم والدمع.

ما أثقل الذكريات على من خاب رجاؤه في الشعارات الملخصة لإيمانه في الحرية والاشتراكية والوحدة، وفي التنظيم الذي حمل هذه الرايات فناء بحملها وخرّ تحتها صريعًا بينما تناثرت الريح أشلاءها.

أين الشوارع التي كانت تفيض بالعرق الذي نضحته جبال الرجال وهم يتخذون الهتاف طريقًا إلى فلسطين، التي كانت تبدو عند آخر خط الأفق، والتي باتت الآن -خلف- جبال اليأس ووهاد الهزيمة؟.

وطرابلس الشام تكاد تخرج على اسمها وتكاد تنكر جمال عبد الناصر وتكفر القائلين بالقومية العربية وتعطي أصواتها لبعض من اغتالوا روحها ليطمسوا هويتها وانتماءها الأصيل إلى أمتها.

ورشيد درباس مزور: كلما قارب الجرح هرب من وجعه إلى الغزل، فندب في الماضي الحاضر، ونعى في الحاضر المستقبل، ثم انفجر ضاحكًا لأنه نجح في مخادعة قارئة، لولا أن فضحته رسوم ابنته رلى التي تتصدى للمرافعة دفاعًا عن «الفتى» فيه ربما لكي لا تكره اليأس في أبيها، أو تخاف من أن ينتقل بالعدوى إليها.

يا جيلنا الذي كاد يضيّع من أقدام أبنائنا الطريق!.

صارت وحدة لبنان أمنية عزيزة، يا أبا توفيق، مزقها التقسيميون بدويلات الطوائف، تتناثر خلف الحدود المقفلة وتسلخ عن بر الشام لتغرق في «القطيعة» التي استولدها جو الحرب على سوريا

في لبنان، والتي رد عليها «قلب العروبة النابض» بما يهدد النبض والقلب والعروبة معًا.

وصارت فلسطين خلف التمني يا رشيد، تخاطبنا فلا نسمع، وينزف محمد الدرة أمام عيوننا التي لا ترى، ويسري في أرواحنا النحيب:

«لك قلبي يا أبي...
قالت العينان عن المغربِ
إيه أمي... كم بكتني أمهات قبل أن تبكي عليّا».

والعراق بين نهري الدمع والدم، يا رشيد، ومصر المحروسة أسقطها حراسها فلم تعد عزيزة وإن ظلت بهية في التخيل:

«وسواد أهل الضاد لا يدرون ما «فصل المقالْ».

وأنت تستحضر ابن رشد وابن خلدون بحذق المحامي الذي يصر على ربح الدعوى حتى لو خسر القضية:

«جلس ابن رشد فوق دكته...
على قدميه أثار الوضوء
الفكر لم يمسسه سوء!
...
في هامش الديوان يجلس فوق دكته... ويرطن مفردًا.
وسواد أهل الضاد لا يدرون ما «فصل المقال»...
خلع ابن خلدون عمامته وخبأ رأسه...
وتهالك المأمون مطعونًا بمسموم النصال
يتكرر الإعراب والإعراب تمييزًا وحال...».

هو النهر هام على وجهه... لولا أن تداركه بعض أهل المعرفة فحوّلوه «إلى بوصلة من حروف تشير إلى قطب البيان العربي، شاشة خطوط وألوان ناصعة الصوت والصدى والفكرة والصورة... خشبة خلاص للأذن من ضوضاء الترّهات وجلبة الإرشاد».

ما هذا الساحر عبد الكريم شنينه الذي حوّل درباس إلى كحل العين؟!.

أما الكشف الممتاز الذي يسره لنا الديوان فيتمثل في أننا عرفنا الشاعر في د. عمر مسقاوي.

لقد تكورت الضاد معه، دون حاجة لأن تجري العروض إلى البحور، «إذا مرت على أسماعنا كانت لنا بردًا على الأكباد... كما يبترد القلق من ماء تفجر كأسًا من غمام الحضارة».

«الشهود» على الديوان في مثل عدد القصائد، لكن المرافعة الحاسمة تتمثل في الرسوم التي أنقذت بها رلى رشيد درباس والدها وديوانه.

وتبقى تحية لوفاء «أبي توفيق» لتاريخه الذي عنوانه طرابلس التي كانت وستبقى قلعة العروبة تلتف بعباءة جمال عبد الناصر الفكرة – الحلم لا الرئيس الذي قتله نظامه.

رشيد درباس، أكثر من الشرب من عين يعقوب،

أعان الله «هبه»...

ديوانك الأبقى!

في رشيد درباس حنين إلى الأمس حيث يعايش الأمجاد

نقيب المحامين سليم الأسطا

أعرفه من مدة طويلة، رشيد درباس، المحامي، النقيب، المحدّث، الخطيب، خدين الكلمة. فهي، معه، عروس ترفل بالبهيّ من الحليّ والصقيل من الملّاء.

هذا من مدة طويلة، اليوم، عرفت رشيد درباس الشاعر، فالعبارة جذلى، والمبنى رشيق، والقافية نَغَمْ. والمعنى... سبحان الله! هو العمق الشمولي.

في ديوان «الرمل ديوان النخيل» طَوَاف على الحلا مثلما هو خطران على محطات يتلاقى فيها الكبراء والكبَر كما في واحات التباهي والازدهاء، من «أبجد» أول حساب الجُمَلْ، ومن سليمان النبي، سليمان الحكيم يأتيه الله الحكمة ويعلّمه لغة الطير... ويسخّر له الريح والجنْ... إلى الفَلَوات والمدائن.

وتتغاوى السِّيَر النورانية عند رشيد درباس، من البوادي إلى الحضر، من بغداد المأمون، بغداد الطفرة الحضارية مع أبي جعفر

المنصور وصولًا إلى المعتصم، فالمتوكّل، ولو لم يُذكر كل هؤلاء السَّدَنة بالاسم، بغداد «دار الحكمة» يتشوّق فيها التراجم النصارى يستكتبهم الابن الثاني لـــ «رشيد» المأمون، الخليفة العباسي السابع، خبايا الاغريق الفلاسفة من سقراط إلى أفلوطين... إلى بغداد هولاكو، بغداد التتار برميها تيمورلنك، من بَعد، بالهجمة الهادمة الذاهبة بمائية الموهبة والفكر والإطلالة على الخلود، كأننا اليوم، إذ برفض رشيد درباس، ونحن معه، أن تعود بلاد الرافدين إلى موات المستعصم بدءًا من خلفاء المتوكل والمنتصر بالله، فإنما يرفض النمط السائد من القادة في عصر الظلامة والظلم.

ويتبختر أبو الطيّب، والرمال غوال بالمواهة، كأنّ الصحراء الجديب تفتّحت كلمات تتطاول إلى الأعزّ والأغلى لتعود من هناك في أوْبة الفرح يوم يُعرض موسم الغلال، وعمر أبو ريشة والأخطل الصغير، وعلي شلق، من «نديُّكَ السَّمْع» إلى «عمَر ونُعْمْ» إلى التمثال يحفظه عليّ ويقول في صاحبه وفي القائل في صاحبه، كيف يكون مالك وكيف يتألّق النعمان في الكلام عن ماء السماء، تملأ الدُّنى بالشقاق الحاكية سيرة الكرائم في الخلق. وبدا لي، وأنا أجول في حلاوات رشيد، من قحطان في اليمن إلى عدنان في الحجاز، قلب الضاد، لغة عدنان، لغة القرآن، وقد حجبت لغة حمْيَر، إلى الزمان الذي نحن فيه. زماننا بالحضارات تتعولهم في متاهة تبدو، حتى اليوم، حَيْرى في أنى تحط الرّحال، بدا لي أن رشيدًا، وهو خدْن تجدُّد، ما زال يحنُّ إلى الكثبان المُطلعة الدنيوات المليحة، دنيوات المُلَح والأطايب وحكايا الألق واللمع والكرم النديّ. إن في رشيد

درباس حنينًا إلى الأمس، الأمس البعيد، والأمس القريب، هناك يعايش الأمجاد مع بادية تتيه وتطول على حضر هي بادلته، وهي ملهمته، وهي كاتبة جماليات ما بين دفتيه. وهذا في لمع وميض، في بَرق يعمُّ دنيانا أملًا لا يلبث أن يخبو مخلفًا في نفسيتنا... النفسية العربية العامة، إحساسين يتضاربان بضراوة، الأول، هو إحساس بالخيبات تعضّ آمالنا شرسة آكلة.

والثاني، هو معايشة الأمل في واحدة من رحلات التّوْق إلى أيام بالاخضلال آتيات.

... و يا رشيدً! أي جولة في رمالك والنخيل هي جولتك تُعزِّج على الديار كلها! وأيُّ ثورة مبرورة هي ثورتك... في الوطنية، في العبارة الغزلة الجَرْس... في الوزن... في القافية... كأنك، يا صديقي وزميلي، تجوز المسافات في تجدُّد بجانب اقتعاد أبي حيّان ويحاور بحور الخليل.

رشيد درباس...
هذا الفتى الستيني

زاهي وهبي

أجيء إلى الشعر من ذائقة ومزاج مختلفين عن ذائقة رشيد درباس ومزاجه الشعري. لكنني أؤمن أن شجرة العائلة الشعرية العربية واحدة. إنها شجرة بجذر واحد وأغصان متعددة أصلها ثابت وفروعها في السماء، لكن مهلاً. هل الشعر فقط هو ما يجمعني بهذا الفتى الستيني الذي أعاد للرمل بعضًا من اعتبار بعدمها انهارت أو تهاوت كل الأحلام التي تبين أننا بنيناها على الرمل. لكن شتّان ما بين رمل درباس المشع المضيء كأنه دم أو حبر أو دمع وبين رمل الذاكرة المثقوبة بعشرات الخيبات، على الأقل منذ أن ضيعنا فلسطين ولم نستطع إلى استردادها سبيلاً، لأننا نسينا أن ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلّا بالقوّة.

لا، ليس الشعر وحده ما يجمعني بهذا الفتى الستيني الذي يكبرني بتجارب كثيرة وبربع قرن من السنوات، لكنني أنتمي إلى جيله بالوجدان القومي وبمكونات الوعي الرافض أن ينقلب على

ذاته ويرضى بانقلاب المفاهيم الحاصل في عالم اليوم، حيث يريد لنا سيد هذا العالم القابع في البيت المسمى على غير اسمه أن نصدق أن المقاومة إرهابًا والاحتلال تحريرًا والقاتل مقتولًا والجلاد ضحية والعدو صديقًا، ولعل رشيد درباس حقق إصابة رائعة في ديوان نخيله حين ألقى القبض، ولو شعريًا، على القاتل وهو يندس في جسد القتيل، وهو الموجوع المتألم من واقع الحال العربي حتى كأني به يقول هذا الزمان ليس زماني مع أن المكان مكاني ونص، فالحنين والتوق يشدان به إلى الزمن الناصري، بما يعنيه في الذاكرة والوجدان من توهج الأحلام ونضارة المعاني حين تكون حلقات النهوض مترابطة متداخلة فكرًا وأدبًا وسياسة واجتماعًا.

إلى الشعر والحنين والحبر والملح أشارك رشيد درباس الدمع على الخصيب وكلانا، كما الجميع فرد توحد في البكاء على الرئيس الشهيد رفيق الحريري الذي سوف تظل جمرة غيابه كامنة في القلب تضاعف الحُرقة واللوعة والأسى على أمة لا تعرف تعرف قيمة أنبيائها إلا بعد قتلهم، ولأنني كشاعرنا غارق في الحسرة حتى الثمالة لم أستغرب أن يضاهي حبر درباس دمعه توهجًا وصفاء، لا في رثائه الحار المختلف لرفيق الحريري، بل في معظم ما سطّره من عمق وجودي مشوب بالقلب والأسئلة، ومن شفافية ورقة بلغت مداها في أنسنة العلاقة مع الطبيعة بكل عناصرها ومكوناتها، فزخرت نصوصه بمفرداتها من شمس وزهر وضوء وسواق وأنهار حتى بدا الشاعر أشبه بفنان تشكيلي يجيد لعبة الضوء والظل ويعرف كيف يضرب الأعمى باللون.

ولئن كان المعنى قد قرّبني كثيرًا من شعر رشيد درباس وخفف من نزق ذائقتي وميلها إلى مشاكسة القوافي والتفاعيل، إلا أنني توقفت مرارًا أثناء قراءتي للديوان عند واحات عذبة جسدتها الصور الشعرية المبتكرة، ولا يُخفى على هذه النخبة الحاضرة، أهمية الصورة الشعرية عند العرب، وهي أهمية ازدادت وتضاعفت مع الخروج على عمود الشعر، وجميل جدًا أن يصير، لدى درباس، الرمل مرساة العصور، والغيث حبال السرة، أو أن تهوي لسعة على حدائها وتتجعد المرآة، ويبدأ الشريين قداسته.

هذه صور أحببتها من الديوان، مثلما أحببت ميل شاعرنا إلى التكثيف والايجاز، وإن كان جنوحه أحيانًا إلى المباشرة والوضوح يفقده بعضًا من شعريته العالية ومن جموح خياله الرحب إلى مزيد من التفلت والانعتاق من أسر العمود والتفعيلة والتحليق في فضاء الصور الشعرية الحرة الطليقة، وهي في ديوانه أسراب تضرب بأجنحتها رتابة الريح وتكسر الإيقاع وتفتح كوى واسعة في جدران الخيال.

لرشيد درباس كل الحب والتقدير وعسى نخيله يساقط دائمًا رطبًا جنيًا.

؟؟؟؟؟؟؟؟

الدكتور سابا قيصر زريق

مؤسسة شاعر الفيحاء سابا زريق الثقافية

إن لم تُسهِمْ في نشرِ كنوزٍ من القريضِ والادبِ الصافي عندما يكونُ رشيد درباس مؤلِفَها وهو المفكرُ والمحامي والنقيبُ والشاعرُ والاديبُ والسياسي، تكونُ قد ارتكبتَ خِيانةً عظمى بحقِ لغةِ الضاد ولغة العرب وهذه جريمةٌ لم تكن مؤسسةُ شاعرِ الفيحاءِ سابا زريق الثقافية لتتجرأ على ارتكابها؛ ليس فقط لأن المؤلفَ أخٌ وصديقٌ، بل لأن حِرمانَ القراء منها جورٌ ظالمٌ.

قارعُ النواقيس، الذي أطربنا بألحانِ أوزانه، يأتينا اليومَ باعماله الخمسة المطبوعة:»همزة الوصل» و «الرمل ديوان النخيل» و «من... الى حبيبته» و «هبة: لحن يضيء الهواء» و «شبابيك ليل»، في باقة عطرة واحدة؛ خمسةُ مواليدٍ بقلبٍ واحدٍ ما نبضَ يوماً الا بالمحبةِ والحُبِ والقِيمْ.

هي ليست بمثابةِ اعمالٍ كاملةٍ، لان نبعَ مؤلِفِنا لمْ ولن يَنضُبَ واعمالُهُ لن تكتمِلَ الا بعدَ امدٍ طويلٍ إن شاء الله.

من اليسرِ مدحُ إنسانٍ اسمه رشيد درباس، إذ عبثًا تحاولُ التنقيب عمّا قد يحول دون ذلك، فأنتَ لن تعثرَ إلا على العدم.

وليست هذه بشهادةٍ مجروحةٍ أو مجنوحةٍ بصديقٍ خَبِرتُ فيه وفاءً قلّ نظيُرهُ ونبوغًا نَدُرَ مِثلُهُ وطيبةً لا تجارى وشهامةَ الفارس وتواضعًا يخجل منه التواضع.

لن أتقدمَ في تقييمي لمنزلة معاليه الأدبية على أترابٍ له، يتشاركون وإيّاه الوَلَهَ بلغةِ الضاد. فهو ساحرُ الحروفِ، يجمعها وينسقها وينمقها ليستولد كلماتٍ يتلهف القلب لها قبل المسمع.

لا يتوقف ناقوسُهُ عن الطنين. فهو كلما راوَدهُ شيطانُ القريضِ، نظَمَ دُرَرهَ، أكان محاطًا بمقدريه الكُثُر أو وحيدًا في خلوةٍ تأملية أو حتى نائمًا يُحلِقُ في سماءٍ سابعة.

طَرِبتُ لقصائدِ نقيبِنا، فهو ينفح فيها موسيقى تغني القارئَ عن ألف سيمفونية وسيمفونية.

كتابٌ ترتَعُ في طياته وجدانيات ثريةٌ بصورِها الخلابة. أرأيتَ كيف طيّبَ همسُ النسيمِ شدوَ الناي؟ وكيف تزاوج السمعُ والبصرُ ليستحيل اللحنُ نورًا يضيء الهواء؟

لم يكنْ فيكتور هوغو قد التقى شبيهًا برشيدِنا عندما قال إن «الشعراءَ لسانُ الزمان»، فلو هو التقاه، لقال «إن الشعراءَ لسانُ الزمان والمكان»، أي لسان الوجود.

هنيئًا لك ولنا، أخي رشيد، هذه القريحة العطرة المعطاءة، ففيها حياة ثانية.

اللغة والعروض في مجموعة «الرمل ديوان النخيل»

د. أحمد الحمصي

الوقت لا يتسع للكلام المطوّل، لذلك يقتضي الإيجاز أن أبدأ من فوري الحديث عن لغة المجموعة الشعرية وعروضها.

في العروض

تضمنت المجموعة إحدى وعشرين قصيدة، إحدى عشرة قصيدة «عمودية» وعشر قصائد على التفعيلة. فأما العموديات فمنها ثلاث على مجزوء الكامل، وثنتان على مجزوء الرجز، وواحدة على كل من المتقارب ومجزوء الوافر. وأما التفعيليات فمنها أربع على الرمل، وثنتان على كل من الكامل والرجز، وواحدة على كل من الرمل والخبب.

ولي بعد هذا التعداد ملحوظتان:

- الأولى: أن عدد العموديات فاق عدد التفعيليات، بخلاف ما جاء في المجموعة الشعرية الأولى «همزة الوصل» التي تضمنت أربع

عموديات من أصل سبع عشرة قصيدة.

وازدياد العموديات في المجموعة الجديدة يفسر اقتناع الشاعر بأن ما يستحق أن يسمى شعرًا لا يحده شكل معين، وإنما يكون القول شعرًا بما فيه من صور طريفة مبتدعة والشعر العمودي، في رأي الشاعر، وفي رأينا، يمكن أن يتحقق فيه الإبداع على الرغم من تضمنه ثلاثة قيود، هي: قيد الوزن، وقيد القافية، وقيد الروي، في الوقت الذي لا يتضمن فيه شعر التفعيلة إلا قيد التفعيلة.

-والملحوظة الثانية اللافتة هي أن الشاعر أكثر من النظم على مجازيء البحور، وهي بحور قصيرة إن لم تتسع للفكرة اتساع البحور الطويلة التامة لها، فإنها تتسع للصور المكثفة التي حرص الشاعر على أن يأتي بها ملونة بالظلال، مغسولة بالريح والمطر، مجلوة كالعروس يُطل من أفقها قمر الغموض الموحي، فتبدو حبات در تُضاف إلى عقود الصور البهية في التراث العربي. فاستمعوا معي إلى قول الشاعر (وهو من مجزوء الكامل):

«البدر يبزغ بؤبؤا
في مُقلة الزمن الضرير
والروضُ يشهق بالرؤى
ويلوّن الزهر الزفير
الغيث يوقظ عشبه
من غفوة الحلم الوثير».

وإلى قوله (وهو على مجزوء الكامل المرفَّل):

«سار الشروق بشمسه

متعجلاً نحو الغروب
مستودعًا ليل الضريح رفات أنوا المغيب
"ذهب الذين تحبهم"
فاذهب إلى الزمن الكئيب».

هذا بالإضافة إلى أن المجازئ تحمل إيقاعًا سريعًا يلبي نفسية الشاعر، كما يستجيب لمخيلته التي تتطلب السرعة في التدبير، والإكثار من الصور المتتابعة، وكأن الشاعر يخاف أن تهرب منه بعض الصور التي تزحم خياله، أو أن تفر منه بعض الألفاظ التي تحمل، وهي مركبة، معاني مجازية تنأى به عن التقليد، وعن المباشرة التي تمنع توهج المعنى، وتجعل منه زهرة ذابلة...

في لغة المجموعة

عرف عن الشاعر النقيب حرصه الشديد على استعمال الفصيح الصحيح من المفردات، وعلى نفوره من الضعف في الصياغة والتركيب، فهو لا يسمح لنفسه باستعمال الأخطاء الشائعة التي انتشرت في المجموعات الشعرية المعاصرة. لذلك كان يغوص في حوض اللغة ويفتش عن ألفاظ مضيئة الوجه، سالمة الجسم، ليعبّر بها عن تجربته الخاصة تعبيرًا ينتقل بها من الخاص إلى العام، ومن الفردي إلى الإنساني، وهو بذلك يفر من المستهلك الرافض إلى الجديد الوامض. متخيّرًا ما يسلس للألفاظ، منتخبًا منها ما يحمل في ذاته وفي السياق رنين الجرس ونبض الإيقاع.

ولا شك أن الشاعر يمتلك قدرة على التشكيل الفني محتفظًا

مع ذلك بقدرته على التوصيل. والجمع بين التشكيل والتوصيل هو مشكلة الشاعر المعاصر اليوم، بل هو مشكلته في كل زمان ومكان. ولعلي استطيع هنا أن أقرر بكل اطمئنان أن رشيد درباس أقدر شعراء الشمال على الجمع بينهما، مع الاعتراف بأن لجودة إلقائه دورًا مهمًا في عملية التوصيل.

ولي بعد هذا ثلاث ملحوظات:

- الأولى: إن المجموعة تتضمن عددًا كبيرًا من الألفاظ غير المستهلكة، وأعني بهذا الألفاظ غير المتداولة بكثرة في الشعر المعاصر، من مثل: يَغِلّ، ويضوء، ونَبَأت، والمسارب والأنسال، والتدجين.

- الملحوظة الثانية: إن المجموعة تقل فيها أحرف العطف والاستئناف والإضراب، وأوضح مثال على ذلك قصيدتاه: «درّة من ضلع الحجر» و«جدل» وبهذا عرف الشاعر كيف يستعمل الوصل والفصل في كلامه وهما عنصران من أهم عناصر التعبير كما ذكر العلماء.

- الملحوظة الثالثة: إن في المجموعة لغة «جديدة» في التعبير من خلال صلات جديدة بين المفردات ومن خلال استحداث معان مجازية لم يُسبق الشاعر إليها -على ما أعلم- بحيث أكسب ذلك عملية الكشف الفني أبعادًا ورموزًا طريفة. أذكر من ذلك شحذ الأبصار وصدأ العين، وتعطير الموعد، وتجعّد المرآة، والأغاني الآسنة، وطيور الأبجدية وجفاف الحفيف، والفكر الزلال، والخيال المشنوق، وتعتيق الفيء، وسجود الظل واختباء الوجه وراء حمرة الخجل، وتحنّط

الحلم، والبصيرة المطهمة، وغير ذلك...

وأترك الحديث عما في ذلك كله من الوجوه البلاغية لأستاذ البلاغة د. ياسين الأيوبي وعما فيها من اللوحات الشعرية لأستاذ الصورة الشعرية في الشمال الاستاذ عبد الكريم شنينة.

قال الشاعر الأموي عمر بن لجأ لأحد زملائه الشعراء: أنا أشعر منك! قال: وبم ذلك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه!!.

لقد استطاع الشاعر درباس أن يقيّم رباط الأخوة بين أبيات مجموعته وأن يكون خياله الواسع أبًا حقيقيًّا لهؤلاء الأخوة...

حَرِيرُ ظَرْفِكَ...

د. أحمد الحمصي

«مهداة إلى الشاعر الأستاذ رشيد درباس»

حريرُ ظرفِــكَ حَاكَتْ بُرْدَهــا الهِيرُ[١]
مِنْــهُ وشِــعْرُكَ إِتْبَــانُ[٢] النَّوَاوِيــرُ

حَلَلْــتَ مُعْضِلَــةَ التَّوْصيلِ فــي عَمَلٍ
شِــعْرِيٍّ اشْــتَعَلَتْ فيــه التَّعابيــرُ

فَاصْنَــعْ ولا تَصْطَنِــعْ شِــعْرًا فرُبَّمَا
أَضَــلَّ مُسْــتَصْنَعٌ أَوْ زَلَّ مَغْــرُورُ

وأَلْــقِ شِــعرَكَ يَلْقَــفْ نُــورُ رَيِّقِــهِ
مــا يَأْفِكُــونَ ويَظْمَــا ذلــكَ النُّورُ

ورُبَّ بَشَّــاكٍ[٣] اهْتَــزَّتْ بَصيرتُــهُ
كَالعَيْرِ[٤] لَيْــسَ لَهُ زَبْــرٌ[٥] ولا خِيرُ[٦]

(١) الهِيَرُ: من أسماء الصِّبا.
(٢) الإِتْبَان: مثنى إِتْبٍ وهو الثوب القصير أو القميص.
(٣) البَشَّاك: الكذّاب.
(٤) العَيْرُ: الحمار.
(٥) الزَّبْرُ: الرأي.
(٦) الخِيَرُ: الكَرَمُ والأَصْلُ.

تَجَحْدَلَتْ[٧] مِنْهُ أَشْـعَارٌ على جُرُفٍ[٨]
هـارٍ[٩] وَرَاحَ وَمثْـوَى فِكْـرِهِ بُـورُ

رَمَيتُـهُ بالَّتي فـي القَـوْلِ مِـنْ إِبَرٍ
فَاطَّايَـرَتْ مِـنْ أَعَالِيـهِ العَصَافِيـرُ

بَرْحَى[١٠] لِمَنْ يَتَمَطَّى شِـعْرُهُ كَسَـلًا
ومَرْحَبًـا بِالَّـذِي أَشْـعَارُهُ الحُـورُ

خُذْ حِذْوَكَ الْيَوْمَ وانْفِـرْ إِنْ تَكُنْ حَجَرًا
فَلَـنْ تُكـوِّنَ فَنَّيْـكَ الأَعاصِيـرُ

قَدْ كُنْتَ تَسْـكُبُ مـاءَ الشِّـعْرِ مُؤْتَلِقًا
واليَـوْمَ أَجْبَلْـتَ[١١] لَا مـاءٌ ولا نُورُ

أَتُونُـكَ ارْتَاحَ مِـنْ حَرٍّ ومِـنْ لَهَبٍ؟
أَمْ أَنَّ إِبْلِيمَـكَ[١٢] الْفَنِّـيَّ مِعْطِيـرُ؟

أَدْرى بـأَنَّ الَّـذي يُلْهيـكَ أَيْلَمَةٌ[١٣]
وَسيعَةُ السَّـاحِ لَمْ يَسْـمُقْ[١٤] لَها سُورُ

---

(٧) تَجَحْدَلَ: صُرِعَ.
(٨) الجُرُف: شقُّ الوادي الذي حفرَ الماءُ أسفَلَهُ.
(٩) الهَار: المُنهَار.
(١٠) بَرْحَى: ضد مَرْحَى.
(١١) أَجْبَلَ الشاعر: صَعُب عليه القول.
(١٢) الإِبْلِيمُ: العَنْبَر.
(١٣) الأَيْلَمَةُ: الألم.
(١٤) لم يَسْمُقْ: لم يَعْلُ.

لَكِنَّمـــا الأَلَـــمُ المِتَـــاحُ شَـــاكَهَهُ[١٥]
ظَبْـــيٌ إِلـــى قُبُـــلاتِ الرِّيـــمِ نَيْفُورُ

هَـــذَا الزَّمَـــانُ بـــهِ يَـــوْمٌ يُسَـــرُّ بِنا
مُـــحَـــدَّدٌ تَـــتَـــمَـــنَّـــاهُ الـــدَّهَـــارِيـــرُ

نَجُـــوعُ فيـــهِ إِلـــى اللُّقْيـــا فَـــذَا أَمَلٌ
وَذَا مُحَـــبٌّ وذَا حَسَّـــانُ يَحْبُـــورُ[١٦]

فَالمُنْتَدَى الكَـــوْنُ والأَعضَـــاءُ أَنْجُمُهُ
وأَنْتَ فِينـــا بِرَغْمِ الْعِلْـــجِ[١٧] بَاحُورُ[١٨]

طرابلس في ٢٣/ ٧/ ١٩٨٧

(١٥) شاكَهَهُ: شابَهَهُ.
(١٦) يَحْبُور: «يفعول» من الحبور.
(١٧) العِلْجُ: كل جافٍ شديدٍ من الرجال أو الحمار.
(١٨) البَاحُور: القمر.

المقامة الدرباسية

الدكتور نزيه كبارة

رشيد أيا صيّاد حلو الكلام
والباحث عن هديل الحمام،
أيها الغوّاص على الدُّر في البحار العميقة،
رفقًا بنا، فقد تعبنا من رمي الشباك،
وأنت –يا رعاك الله– ما زلت تغوص في الأزرق،
تجوب الآفاق، تلتقط اللؤلؤ والمرجان
وتكحل عيون القصيدة.
حنانَيْكَ يا رشيدُ ورفقًا بالقوارير،
ما عدنا نقوى على الرسو في مينائك،
فمجاذيفنا كسّرتها أمواج خيالك،
والصور المرمّزة طوّحت بنا وألقتنا في المهالك،
عبثًا نحاول فكَّ السحر وقراءة الحظوظ في فنجانك،
والفلكي انثنى قاصرًا عن رصد أبراجك،
فاستعنّا بهاروت، فاستعاذ بالشيطان من سحر أشعارك،
حنانَيْكَ رشيد ورفقًا، ألم تر أنك لم تعد من زمانك؟

يا صائغ اللآلي عقود ماس للقصائد الرشيقة،
والموري بكل شفّاف مهفهف
من الألفاظ عن معنى الحقيقة،
هل أنت في شطحة صوفية، قل لي، أيا شيخ الطريقة،
أم أنك تأمر رضوانها ليأذن بدخول جنتها!!

***

أسرجتُ خيلي كلها للجري في ميدانك.
أطلقتها تسابق الريح فما أثارت إلا النّقعَ خلف أفراسك،
أهوَ الأبجر وحدك تمتطيه، تطير به إلى أبعادك،
هوّن علينا، أم هكذا هو الصعب، دومًا، خطُّ مسارك

***

يا مجتني العسل المشتار من فوح جرارك،
هلّا أبحْتَ بعضه للمُستقين فضل إنائك،
أخشية عليهم إبر النحل قبل اشتيار العسل من دنانك،
أم ترى هو البخل؟ عجبًا! ما عرفنا الجود إلا بعض خصالك.

***

ما بالك رشيد رحلت عن الأزرق الساجي والأفق الوسيع، وبارحت الشطّ والموج إلى الرمل البديع؟،

أتُراك سئمت رائحة الفُلك والسمك، وعُفت الصواري والأشرعة والشبك... أم هو الحنين إلى زمان غابر كنت فيه حالمًا بالنخيل، وبظلها الظليل، وبالرُّطب تساقط عليك بمجرد هزها!! فلكم كانت أحلامك في تجديد خلال الصحراء وتحريك كثبانها

وتثوير رمالها كبيرة كبيرة كأحلامنا... لكن الرياح لم تهب إلا من خلال فوهات البنادق، ولم تعصف لتغيير الملامح العتيقة، فإذا الرسوم باقية على عهدها وخضراء الدمن على زيفها، وسطح الرمل لم يتغضّن إلا قليلا.

لا أظنك يا رشيد رحلت إلى الرمل بحثًا عن الجنى الوفير، فالنخيل التي أثمرت ذات يوم رطبًا جنيًّا قد أصابها العقم فلم يعد يجديها التأبير، والرمال لم تعد تسفيها الجنوب كعهدك بها، بل رياح هوجُ هبّت عليها من فضاء آخر، فاستسلمت لها متخاذلة مستكينة.

***

أتراها يا رشيد غامت كل أحلامنا، فلا فجر قريب ولا ديك عاد يصيح.

***

لا أظنك يا رشيد تلوم الزمان الحطب، ولا القدر المقدور على العرب، بل تلوم هامات أقعدها اللهو والطرب ولم تحركها سورة الغضب، فهل أنت مسافر إلى الرمل والنخيل لتثير بقية من ضمير، وتحذر من سوء المصير إن نحن تمادينا في الرقاد والنفخ في المزاميز؟!

إن كان هذا ما توده في «الرمل ديوان النخيل» فحسبي أنني قد فهمت... وما فهمت ليس بالقليل... هو اليوم صرخة في واد، وغدًا تحطيم أوتاد، وعصف بالرمال لتغيير الملامح، ونشر للضوء في مراتع الظلام.

أنشودة حياة متجددة شعرًا

د. زهيدة درويش جبور

في مجموعة رشيد درباس الشعرية الصادرة حديثًا لدى «مركز محمود الأدهمي الثقافي» يتصالح الشعر مع نفسه وتعانق القصيدة العمودية قصيدة التفعيلة، في مناخ من الانسجام يجعل من بنية الديوان وحدة متماسكة الأجزاء، سرها أصالة في الانتماء إلى تراث لا يزال ينبض بالحياة، يرفد التجربة المعاصرة المتفاعلة مع الحاضر والضاربة جذورها في الوقت نفسه عميقًا في تاريخ الثقافة الشعرية العربية. جمالية القصيد تحسم الجدال القائم بين المدافعين عن شعر الحداثة من ناحية، والمحافظين المتمسكين بما تمليه قواعد العروض وأوزان الخليل من ناحية ثانية. فأنت في حضرة الجمال، لا تسأل عن سرّه بل تستسلم لفعل سحره الذي يستولي على حواسك وينأى بك بعيدًا عن رتابة المألوف.

لكن مهمة النقد هي تجاوز الإحساس بالجمال نحو البحث عن مصادره غوصًا في عمق التجربة وبحثًا عن خصائص اللغة الفنية التي تعبّر عنها. والتجربة في الديوان وجدانية ذاتية ووطنية قومية، لكنها لا تتوصل لغة البوح، مبتعدة عن الغنائية، مستعيضة عنها بلغة

الحضور حيث تتحرر الأنا من سجن ذاتها لتصحب جزءًا لا يتجزأ من الكيان الكوني الإنساني. وهذا ما ينعكس على طبيعة الصورة الشعرية حيث تتداخل العناصر ويتشابك الذاتي والموضوعي فيولد عالم الأعجوبة ويبعث الإحساس بالدهشة والانخطاف. بذلك تخرج قصيدة الوصف عن كونها مجرد تقرير أو إعادة إنتاج للواقع المرئي، لتصبح ضربًا من ابتداع الغريب لأنها ليست مجرد تسجيل لما تراه العين بل هي إملاء الرؤية، تلك المرآة السحرية مصدر كل التحولات. هكذا يصبح العالم الموضوعي مادة حبلى بالغرائب ويتحرر من محدوديته لينفتح على لا نهائية الاحتمال. في معنى آخر يصير مادة شعرية بامتياز، وفي المقابل يصبح الشعر لغة الحياة، حروفه عصافير تطيّرها فصول العمر لتأوي في كتاب، كما نستشف من صورة جميلة في القصيدة الافتتاحية. ويشي فن الوصف بجهد إبداعي وتقنية عالية وبراعة في صنع الصورة وفي انتفاء العبارة لكأن الكلمات أحجار كريمة يصقلها الشاعر في عناية وصبر لتضج القصيدة بسناها وسحرها:

«يشرئب الموج حتى يجذب الشمس إليه
بتلابيب الشعاع
خصلة من شعرها، فرت على سرب حمام
شهقت أجنحة بالضوء... شعّت كمرايا من سلام
ثم غاصت في الظلام».

إنها لوحة الغروب ترسمها باللون والضوء ريشة شاعر متيقّظ الحواس وتسكبها إيقاعات خفيفة ترسم حركة غرق الكوكب

الذهبي في اللّجة الحمراء.

من ناحية أخرى، تنفذ عين الرائي إلى سر الأشياء تبحث عن المعنى الخفي تحت بداهة السطح تتجاوز القشرة إلى اللب والعرض إلى الجوهر:

«من يحفر المعنى ليمتاح الكنوز السائلة
من ذا يفك حجارة المبنى على سنن المظلل بالغمامة
ويشيد أبراجًا لزرقاء اليمامة».

فالإبداع عملية شاقة تتطلب صبرًا ومعاناة وتضحية وهو في الوقت نفسه طاقة على الحلم الذي يفتح باب التجاوز، وقدر على التحليق على أجنحة الخيال خارج حدود الزمان والمكان:

«إنني أشدو بعيدًا عن مدار الجاذبية
فخطوط الطول والعرض
احتباس لطيور الأبجدية».

والدينامية ميزة أساسية للخيال الذي تكشف عنه القصائد والذي يتجلى قدرة تحويلية وخيمياء شعرية تخرج الخارق من حضن المألوف وتبني الجسور بين العناصر المتباعدة، فيقول الشاعر مثلًا:

«لكأن البرق يذيب الرعد خريرًا في أحشاء النهر».

لذلك تحت الصورة مكانة مركزية في لغة درباس الشعرية وهي تعتمد على الرمز والمجاز، ذلك أنه من طبيعة المعنى أن يبقى هاربًا أو يعصي الامتلاك فينساب كالرمل من بين الأصابع.

يفرد الشاعر في الديوان أكثر من قصيدة ليعبّر بلغة الرمز عن مفهومه للكتابة الشعرية، ولعل أجمل هذه القصائد وأكثرها إيحاء

«الرحلتان» و«الرمل ديوان النخيل» التي أعطت الديوان عنوانه.

في الأولى تصوير للحالة الشعرية لحظة التماع الرؤية الخاطفة يرمز إليها الشاعر بالرعد حيث يقول:

«حفر الرعد الجبالا
زرع الرهبة فينا فجنيناها غلالا
أتراه يجبل الأرض بنور
أم تراه يخزن البرق زلالا
فإذا غاب وميضًا عوّض الغيبة لمعًا في عيون تتلالى؟».

تظهر هذه الأبيات طاقة على تكثيف الصور تبث في القصيدة حيوية نادرة توقظ القارئ من غفلته وتشحذ مخيلته ليدخل مع الشاعر في مناخ الجدة والفرادة.

أما القصيدة، الثانية فيحدد الشاعر فيها موقفه من التراث والحداثة ويكشف عن اختياره. إنه أصيل الانتماء إلى التراث الشعري العربي يتغذى من نسغه فيقرأ في كتاب الصحراء لغة تختزن في طياتها مقومات الهوية وتشرع أبوابها في الوقت نفسه للحرية والابتكار. ليست الصحراء مجرد مكان بل هي جغرافيا داخلية وحقيقة كيانية:

«فالرمل يختزن الكتابة مثلما اختزن الشعور
الرمل مرساة العصور».

كل تنكّر للصحراء خيانة، وكل إبداع لا يتمثلها اغتراب. في معنى آخر، لا ابتكار للجديد بلا معرفة عميقة بالقديم، ولا إبداع من دون التمسك بالأصول، ولا حداثة بلا تجذر. كأن الشاعر يرد على

المتطفلين على الساحة الشعرية ممن يتذرعون بما دعا إليه الشعر الحديث من تحرر من الأوزان والقافية ومن تمرد على القديم، وجنوح نحو الغريب واللامألوف ليتفلتوا من كل قيد ويغرقوا في الشطح والإبهام حين يقول:

«لكننا لا نقتفي الرمل الدليل
ويح لنا... يا ويح أبناء الخليل
من قاتل يندس في جسد القتيل».

يبقى رشيد درباس الشاعر أمينًا لعروبة متحررة، مستنيرة، منتفضة على الظلم والتخلّف، عروبة آمن بها وناضل من أجلها حتى في الأزمنة الحالكة حيث أبواق اليأس تنفخ من كل صوب. وهو كذلك لبناني أصيل، ابن هذه الأرض الطيبة التي أحبها في قرية ولد فيها ولم يهجرها إلا ليحملها في قلبه وليزرعها في حديقة قصائده. هي عين يعقوب لا يزال زلال مائها يرتل ما يترقرق في حناياه طول السنين كما يحلو له أن يبوح في القصيدة.

الديوان باقة جميلة من الحالات الوجدانية فيه فرح وألم، ابتسامة ودمعة، نشوة وخيبة، وفيه لوحات طبيعية مشعة بالنور والضوء، ووجوه لأصدقاء شركاء في النضال وفي عشق القصيدة والقلم، ولرجال لمعوا في فضاء العروبة كالشهب وتركوا لنا حين غابوا جروحًا لا تندمل. بين موت جمال عبد الناصر واستشهاد رفيق الحريري خيط أحمر رفيع. إنه دم العروبة المستباحة الممنوعة مع النهوض.

مع ذلك، ليس في الديوان أي شعور بالهزيمة أو الاستسلام

لليأس بل أنشودة حياة متجددة وإيمان بمستقبل مشرق توحيه ألوان الرسوم الزاهية التي ترافق القصائد والتي استلهمها منها كل من رلى درباس ومحمد غالب محققين بذلك تكاملاً وتناغمًا تامًا بين لغة الريشة ولغة القلم.

كلمة أخيرة، من يسافر في الديوان بحثًا عن لؤلؤ الكلمات وعن ذهب المعاني لن يرجع صفر اليدين، ففيه منها الكثير.

قصائد من سحر كأنها الشجن

فيصل سلمان

الصديق رشيد درباس، نقيب محامي الشمال السابق، قدّم لي ديوان شعر اختار له عنوانًا جميلًا: «الرمل ديوان النخيل».

حالما بدأت في قراءة القصائد، وقعت في ورطتين، أن تكتب عن صديق، هي الورطة الأولى، وأن تقنع الناس بأنك استمتعت فعلًا بما قرأته، هي الورطة الثانية.

لذا، سيكون عليّ أن أتكل على مصداقيتي، بعيدًا عن زاويتي «اختصر» محاولًا الحياد، ليس تجاه رشيد، بل تجاه القصائد، وقد سكبها كألحان السحر فجعلني أسيرًا بين «الرمل» و«النخيل».

وكلمات القصائد حائرة بين صالون وكتاب، حتى إذا اكتملت حلقة الحيرة، لجأت إلى الكشف والتأويل، وهما صفتان من صفات الشعر حيث يكون الكلام مفتوحًا على مروحة من الدلالات والتأويلات.

إذًا، هو الشاعر ينصب لك أفخاخًا من مطلع الكتاب، ثم تروح تنتقل بين السطور كالغزال.

أليس حقل الكلام ملغومًا بالصورة والتشبيه والكتابة والمجاز

والاستعارة، في انسجام احتفالي راقص على إيقاع البحور... هذه هي موسيقى الكلام العربي.

بل تلك هي حديقة الشاعر رشيد درباس، فيها شجيرات باسقة من بساتين اللغة، لغة أجاد في إيقاظها فطاحل سبقوه، وروائح عطرة من غبار المتنبي وأبي تمام وترانيم أندلسية تواكب السطور إلى الحداثة.

في رحل الكلام والبلاغة، يبرق المعنى في شعر رشيد درباس كأنه شعر السماء:

«كان الكئيب كتابنا
صفحاته كانت رسالات العروض إلى البحور
كم بعثرتها الريح ما بين البوادي والثغور
لكنها لا تمحي فيها السطور».

مشهد – نشيد مخيلة يمسك بنبل الهوية، كأنها الرؤيا.

في العام ١٩٩١ صدرت لرشيد درباس مجموعة شعرية بعنوان: «همزة وصل»، قد وصل في مجموعته الأخيرة إلى حيث المكان.

في قصيدته «على قبر عبد الناصر» يقول:

«سار الشروق بشمسه متعجلاً نحو الغروب
مستودعًا ليل الضريح رفات أنوار المغيب
"ذهب الذين تحبهم" فاذهب إلى الزمن الكئيب».

لم ولن يغادر رشيد درباس شجنه، وهو وإن عرفه أصدقاؤه بصخبه وضحكاته فقد عرفوه أيضًا مناضلًا، عروبيًّا، وطنيًّا، ومهتمًا في أن يضيف:

«نزفت عروق الرمل
فاصفرت حروف
وعرا ملامحها خريف
وتعرّت الأشجار من ورق المجاز
وعن ثمار قوامها سقط النصيف
هجرت طيور من بيان
عندما جف الحفيف
فالصمت يفترش القصيدة
والسراب على معالمها يطوف».

ببساطة، ينتقل رشيد درباس من القصيدة الحديثة إلى القصيدة العمودية، وفي أعماقه حنين إلى الأخطل الصغير وإلى الشاعر الكاتب الأنيس د. علي شلق:

«تراه يولي "عليًا" في وصيته
أما القوافي... وأمر الظبي إن سنحا
أم أنه نُصُبٌ في منصب عجب
"يبكي ويضحك لا حزنًا.... ولا فَرَحا"».

على أن أجمل قصائده تلك التي حملت عنوان «الخصيب وفيها لامس درباس جذور الحزن الغاضب وغاص في دمع هادر... مرثية رفيق الحريري، كأنما البركان في رقة البيان:

«من أحرق الزيت المقدس... قبلما الزيت انكسب
من كان لؤم شرارة... من كان حمّال الحطب
من أطفأ الأحلام في عين العشيرة... والعرب

تبّت يداه أبي لهب تبّت يداه... بما كسب».

مجموعة شعرية منوعة، تحملك كما الموج يلاعب زورقًا من خيال وحروف... رمزيته برسوم لرلى درباس، على خطى أبيها. يقول فتقول. يهمس. فتهمس، فإذا انتهيت من الكتاب وقاومت عيناك الرسوم، تنتبه إلى سراب الواقع فلا تنتشلك منه إلّا الذكريات.

نقطة ضوء هي النور وجودًا

عبد الكريم شنينه

أهلًا بكم على رمال هذا الشاطئ ضيوف ديوان من الشعر... عفوًا... من النخيل وبعد،

يشدني إلى الحديث في هذه الأمسية أمران: صداقة هي شاشة أيامنا الخوالي بالأبيض والأسود، ومجموعة شعرية بالألوان تكاد سطورها تضيء بنا وبأحلامنها التي بددها الواقع ولم يبق لنا منها سوى ألق خجول في الأرواح والأوراق.

«الرمل ديوان النخيل» نقطة ضوء تقف من عن يمين أختها «همزة الوصل» الديوان السابق لرشيد درباس ونقطة الضوء هذه «حسبها أنها النور وجودًا وحسبنا العينان».

واللافت في هذه المجموعة من حيث اللغة الثقل النوعي لكلمات الشاعر ووزنها الصوتي في الأذن والوجداني في القلب وبريق جواهرها في الأبصار والبصائر. فاللغة كأداة قناة تضيق وتتسع تبعًا لما يقع من المرء في فؤاده ويقتدحه العقل بزناده والشعر، كما هو معلوم، عبقرية اللغة وعصاها السحرية وجناحاها اللذان يجوبان الآفاق والأزمان.

ترى كيف استطاع رشيد درباس أن يوظف لغته ويحلّق بجنايها في قضاء التراث والواقع المعاصر؟

سأتناول في هذه العجالة بعض المفاتيح التي اعتمدها الشاعر في ديوانه... غير أني قبل الغوص فيها لا بد لي من التوقف عند ملاحظتين:

- أولاهما: ان المجموعة بالإضافة إلى قصائدها الوجدانية والوطنية والقومية تشتمل على قصائد لونية بريشة الفنان محمد غالب والفنانة الواعدة رلى رشيد درباس التي شابهت أباها اختصاصًا وموهبة وذوقًا ورقة شعور وقديمًا قيل «من شابه أبه فما ظلم».

- والملاحظة الثانية: ان السمة البارزة للنصوص قربها من المتلقي موضوعًا وهمًّا وأدوات تعبير، وبعدها عنه معاناة يشيب لها الفؤاد قبل الفودَين. فالشعر ليس مركبًا ذلولًا كالنثر ولا بد للشاعر الدرب العالم بتقنيات لعبته الجمالية من تزويد قارئه الريض بمفاتيح تجربته الوجدانية ليتم التواصل بين شاعر يبدع ومتلق يتذوّق ويستمتع بما يقرأ ويسمع.

من هذه المفاتيح نظام الدائرة، فرشيد درباس يبني تجاربه على دوائر شعورية يحيط بعضها ببعضها الآخر.

ترى ما الأسباب التي دفعته إلى ركوب هذا المركب الخشن؟ وهل للدوائر العروضية أثر في مغامرته تلك؟ أم ان دورة الحضارات في الشرق بحلقاتها المغلقة والمنفصلة هي الهاجس؟ أم ان مهنته كمحام لامع فرضت أطرها على نظام القصائد فغدت مرافعات منتظمة الدوائر؟؟ يسوق فيها الرأي ويدافع عنه ويغنيه بالشواهد

والأدلة، المستنبطة من الشعر والتراث؟؟ أم يكون ذلك بسبب المآسي التي تدور دوائرها علينا؟؟؟.

الدوائر العروضية بإيقاعها الموسيقي القائم على أنغام الأسباب والأوتاد خمس عند علماء العروض، وكما ينفك عن دائرة المتفق بحران هما المتقارب والمتدارك، تنفك كذلك عن القصيدة الأولى الموسومة بالمرآة حالتان شعوريتان تتمثل الأولى في دائرة الجسد الذي أدى شوطه للزمن وتطل الثانية من مدار الروح الشابة التي رفضت حكم المرآة وخلعت التجاعيد على زجاجها المتغضن.

«**ترى سماتنا التي تهدّلت؟**

أم أنها المرآة قد تجعدت؟».

هكذا يرسم الشاعر بلغة سلسلة وصورة فنية آسرة مأساة «الجسم الممهور بأختام الردى منذ النشوء»، ويلتقط بهوائي كلماته صدى صرخة الخنساء وحشرجة أنفاسها حين قالت:

«**إن الجديدين في طول اختلافهما**

لا يفسدان ولكن يفسد الناس».

وقل مثل ذلك عن دائرتي القصيدة الأخيرة دائرة الحدث الزلزال الذي هز الحياة السياسية في لبنان والعالم بجريمة اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري وتقوم على البيت الأول:

«**إن ذبت في حرب اللهب**

فكذلك الحرّ الذهب».

لتنغلق على نفسها في البيت الأخير:

«**تبّت يداه أبي لهب**

تبّت يداه بما بكسب».

ودائرة النخلة العربية التي ذبحت من السعف إلى الرطب والنخلة هنا رمز للسيرة الذاتية لفقيد الوطن والأمة قامة وارفة بالخير بعذوبة حلم، وظل يكبل المسافات باتساع حضوره شرقًا وغربًا:

«يا نخلة عربية ذبحت فخضبت النسب»

وليست وقفة الشاعر على قبر عبد الناصر ببعيدة عن هذه المدارات والأفلاك، إنها تدور في فلك التجربة الوطنية المصرية لتكتمل في فلك التجربة القومية التي جذب مدار وحدتها جماهير الوطني العربي من المحيط إلى الخليج.

وتغيب شمس الناصرية خلف سجف القبر ويذر الزمن الرديء قرنه فيتعزى شاعرنا في ختام قصيدته بشطر بيت لعمرو بن معد يكرب ويحذرنا من حاضر حطبت أعمالنا فيه ومستقبل غامض لاحت نذر مآسيه في الأفق:

«ذهب الذين تحبهم

فاذهب إلى الزمن الكئيب».

أما قصيدته الرمل ديوان النخيل وحاشيتها إلى يقظان بن حيّ، فنقطة الدائرة الأساس في هذه المجموعة وما أقربها من دائرة المشتبه الكاملة أو المؤتلف، وما أشبهها بدوران الكواكب في مجموعتنا الشمسية وأخذ الأدلة بعضها برقاب بعض في المرافعات.

يبدأ النص باللغة التي دوّنها النخيل في معجم الصحراء واجتمعت على اللسان سلكًا ناظمًا للقبائل المتناحرة على ماء أو مرعى وكرمها الله في محكم تنزيله فكانت لغة القرآن الكريم وجمع

الخليل بن أحمد الفراهيدي أوادبها في معجم العين:

«لكننا لم نقتفِ الرمل الدليل

لم نقرأ العبرات في عين الخليل»

وبعد أوليست اللغة وعاء للفكر؟؟؟ هنا يستعيد رشيد درباس تجربة فيلسوف قرطبة وقد جلس على دكته وهو الفقيه يحرر كتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال مجيبًا على سؤال أقلق المفكرين في مختلف العصور: هل النظر الفلسفي مباح في الشرع أو محظور؟؟ وقاطعًا بأدلة شرعية مفحمة جدلًا قديمًا أعيا العقول. فالشرع يأمر بالنظر الفلسفي ويحض عليه ويوجبه:

«جلس ابن رشد فوق دكته

على قدميه آثار الوضوء

الفكر لم يمسسه سوء

الله يقذف نوره في صدر

من يتنشق الفكر الزلال»

ولكننا لم ننتفع بهذا النور الذي أفاق الغربي على هديه، فالفتى العربي استقال من موقع الفاعل في الجملة وآثر خانة المنصوبات وصار كالتمييز فضلة وكالحال مقامًا... إلا إذا التبس المعنى كما يقول النحويون:

«من سلة الفصحى تساقط دره

فتلقف العربي أجوده

وشيّد مجده حين الفتى العربي

من مجد الريادات استقال

يتغيّر الإعراب والأعراب تمييزًا وحال».

قلت إن قصيدته «إلى يقظان بن حيّ» حاشية على رائعة «الرمل ديوان النخيل» وفيها يبدو حرص الشاعر على شباب الأمة وخوفه من ضياع المستقبل من أيديهم إن أسلموا قيادهم مرة أخرى إلى أمثال هيّ وبيّ كما فعل أبناء جيله:

«أيا بني
إن جاءت العنقاء تستهويك بالشكل الحسن
ولوّنت بالورد أوراق المنام
كي تترك القياد في قبضتها
وتسلس الحصان والزمام
فاعلمْ بأن اشتريت خدعةً بباهظ الثمن
حذار خضراء الدمنْ».

وخضراء الدمن -كما تعلمون- في الحديث النبويّ الشريف «المرأة الجميلة في منبت السوء» وهي في القصيدة رمز للقيادات التي عطّلت دور الشعب وفتنته بالشعارات البرّاقة.

هذا غيض من فيض، ولا يظنّن القارئ أنني أحمّل النصوص ما لا تُطيق. فكثيرة هي الإشارات في الديوان إلى فكرة الدائرة بمفهومها الهندسي، والدورة الحضارية الشرقية بنمطها الآسيوي المغلق، ودوران الأدلة القانونية حول نقطة معينة في المرافعة لإثبات تهمة أو رفع مظلمة.

أما المفتاح الثاني، فالطبيعة بمختلف حللها وألوانها، وأرائي في غنى عن الأمثلة، لبيان أثرها في نفس شاعرنا، وطيوبها في شعره.

ولكنني أشير إلى أن رشيد درباس لا يرتمي في أحضان الطبيعة هربًا من الواقع، كما كان يفعل الشعراء العباسيون، وإنما يستحضره فيها. فهي البقعة الوحيدة التي نجت من التلوث بآفات العولمة ونفايات النظام العالمي الجديد، ووحشية أسواقه.

قال لي في إحدى الأمسيات، أأشجتك صور الماء والنبات في شعري؟؟ فقلت له: إنك شاعر نباتي بامتياز. فطرب لذلك، لعلمه أن النباتيين أطول عمرًا وأنقى بشرة وأبهى حضورًا وشعورًا من المستلحمين. وأحسب أنه لذلك زيّن شعره بظلال النخيل وقداديس الشربين، ودعا إلى صفحات ديوانه النسيمات من بني مسك وعنبر، واستنفر آل الصنوبر، ليغزو رياض عين يعقوب بعقله ولبّه وكم استهوته صوفية السرو والحور والسنديان في حديقة د. علي شلق في كفريا، إذ ترفّعت هذه الأشجار، لغاية في نفس صاحبها، عن حمل الثمار اليانعة، لتطرح الشدو والظل وتحتضن الشعراء على مدار ثلاث سنوات، كطيور ظماء للأفياء والألحان.

وغزل شاعرنا عذريّ عفيف، تلتفت مقطوعاته الرشيقة إلى غنّة الصوت ورهافة الإيماءة:

«**مرحى لصوتك في الأثير**
كالورد يسبقه العبير».

ولنستمع إليه وهو يلبس مسوح العذريين القدامى:

«**القلب ران إلى لقياكِ في شغف**
والوجه مختبئ في حمرة الخجلِ».

ومن منّا لا يشجى لقوله:

«يواكبك الحب كيف انثنيتِ
وإما دنوت يحاذر وصلا
نسختك أصلا
ضممتكِ لما نأيتِ».

أما الصور الفنية في الديوان، فأنها جوهره وموضع الألق في تضاعيفه. وما قولك بشاعر يؤثر التعبير بالصورة، تمشيًّا مع ثقافة العين، في عصر طغى فيه المرئيّ على المسموع. ومن الصور الفنية المبتكرة، على سبيل المثال لا الحصر، قوله:

«تصوننني من البيات في مقام الذكرياتِ
وتشحذ الأبصار كي لا يُصدئ العين السّبات».

وقوله:

«البدر يبزغ بؤبؤًا
في مقلة الزمن الضرير».

وما أروع تلك اللقطة المعاصرة في قوله:

«هو النهر هام على مائه
مضرى يشرئب نخيلاً،
يبثْ عيون البلح
يمدُّ هوائيّه سعفًا أو طيورا».

ولا تقل صوره الفاتنة في قصيدة المعبد العاصي عن أخواتها السالفة الذكر:

«العاصيان اتحدا
قرابة ومحتدا

هذا تجلى كرمة
وذا تعلّى معبدا
الأمس طال سكره
فتعتع الأمسُ الغدا»

والعاصيان هما نهر العاصي الذي عصى المكان، وقلعة بعلبك التي عصت الزمان.

وبعد، لا أريد أن أشوّه هذه الصور بالشرح والتفسير، لأن شرح الصورة الحية، قتل عمد لها عن سابق تصور وتصميم، وجناية يعاب عليها الذوق، ويعدها من باب الجرائم التي تهدد أمن اللغة وتمس هيبة الشعر. وأنا لا أشتهي أن أكون متهمًا في محاكمة، خصمي فيها نقيب سابق للمحامين.

؟؟؟؟؟

د. محمد زيدان

تتميز الحياة الشعرية العربية الآن بأنها تعطي صورة لحياة الإنسان وقيمه وآماله وطموحاته في آن واحد، يتبع هذا التمايز وجهتيّ نظر أساسيتين، الأولى، أن مختلف الاتجاهات والمشارب الشعرية تتعايش بصورة طبيعية فيما بينها في كافة أرجاء الوطن العربي، وبالأخص في مصر، وفي لبنان.

تبدو هذه الطبيعة في الهم الواح الذي تتجمع الأجيال الشعرية حوله (هم الوطن، والإنسان)، أقصد بالأجيال الشعرية هنا اتجاهات الكتابة نفسها، بداية من التوجه الكلاسيكي القديم، والكلاسيكي الجديد ومرورًا بالقصية الجديدة (الحرة – وقصيدة النثر)، الثانية، أن كل توجه يحمل في دواخله بذورًا لتواجد العطاء والتفاعل مع غيره من الاتجاهات الأخرى، والناظر لحركة الشعرية اللبناني يجده أكثر انفتاحًا على عوالم جية وهائلة من الابداع والدلالات، نظرًا لما مرَّ به هذا القطر الغالي من أحداث وصعوبات وتحديات مازال أكثرها قائمًا في الداخل والخارج.

وإذا جئنا إلى الشاعر (رشيد درباس) في ديوانيه (همزة الوصل،

والرمل ديوان النخيل)، وهما العملان المتوافران لديَّ، أجد أن الشاعر ينتمي إلى الاتجاهات الكلاسيكية الجديدة، وهي اتجاهات تتسم أو تتفاعل مع عدد من الظواهر الشعرية واللغوية التي تنبع من ثقافة الشاعر، وثقافة الاتجاه الذي يمثله. واللافت أن الكثير من الشعراء عندما نصف اتجاهاتهم تحت هذه المسمى (الكلاسيكية الجديدة) نجدهم ينزعجون إلى درجة كبيرة، برغم أن هذه التسمية تستقي مشاربها من رؤيتين منهجيتين:

– الأولى، رؤية القصيدة القديمة العربية بما تحمل من سمات فنية متعددة.

– الثانية، رؤية القصيدة الجديدة بما تتسع من تقنيات ودلالا واقعية وحديثة.

وهذا يجعل من الكتاب والشعراء الذين يقدمون إبداعًا تحت هذا المسمى من أكثر الكتاب انفتاحًا على التراث بما يحمل في طياته من زخم إنساني وفني، وبما يرفد في نفس العربي من آمال وطموحات، ثم يجعله أكثر انفتاحًا على الاتجاهات الشعرية الجديدة بما تحمل من رؤى منهجية وأفكار تعطي مذاقًا خاصًّا للنص الشعري.

الكلاسيكية الجديدة –أيضًا– كما يمثلها الشاعر رشيد درباس تقدم مجموعة من الخصائص الشعرية واللغوية التي تطرح رؤية الشاعر، ورؤية المكان، ورؤية الزمان بما يتواءم والحالات العامة والخاصة التي تتوافق مع النص وعلاقاته المتعددة، والتي يجب أن تكون منسجمة إلى درجة كبيرة وبخاصة إذا اتحد النص بما يشتمل

من علاقات تاريخه وحاضره اتحادًا يجعل من النص والعالم الذي يمثله بنية واحدةً ممثلةً له، وفي الوقت نفسه ممثلة للعالم الذي ينجزه، أو يقدمه. وهذا الطرح يبدو جيدًا في النماذج التي يقدمها الشاعر في ديوانيه. إذ نرى أنه يتفاعل بصورة واضحة مع تاريط النص الشعري العربي، ويتفاعل مع واقع الشاعر بما يقدمه من دلالات حيَّة تتصل بعدد من الصراعات القائمة في النص منها:

- الصراع بين الذات (الشاعر) والآخر.
- الصراع بين الذات وبين العالم.
- الصراع بين الذات وبين الفكر.

لا أجد تمثيلًا نقديًّا حول هذه الفكرة عند رشيد درباس أكثر مما قدمه د. حامد أبو أحمد في كتابه عن تحديث الشعر العربي - تأصيل وتطبيق وهو يعطي مقاربات نقدية حول شاعر معاصر هو حسن فتح الباب إذ يقول: «والبنيوية التكوينية منهج تبلور بصورة أساسية على لوسيان جولدمان، ويقوم على محاولة تحليل البنية الداخلية لأي نص من النصوص بربطه بحركة التاريط الاجتماعي الذي ظهر فيه -ومن أهم المقولات عند جولدمان وإن كانت خلفيتها تعود إلى لوكاش مقول «النظرة الشمولية» حيث يرى أن الفكر الجدلي المطبق في مجال الفنون والأدب يمكن أن يكون رياضيًّا بحتًا... لأن التاريط في تحول مستمر ... بالإضافة إلى الكثير من المقولات التي تعطي صورة من حركة الوعي والممكن والنظرة الشمولية للشيء ... الكتاب، ص ١٩٢- وإذا حاولنا استقصاء المفاهيم لدى الشاعر رشيد درباس نجدها كالتالي:

١- القصيدة عنده تحتفظ بالشكل الكلاسيكي الرئيسي المتمثل في العروض العربي، وفي الوقت نفسه تحاول أن تجد طريقها الخاص وسط الإبداع المعاصر.

٢- تحتوي القصيدة عنده على كثير من سمات الإبداع المعاصر أو الرؤية المعاصرة للأشياء.

٣- يوائم الشاعر بين الشكل والدلالة بما تتيحه له المساحة التي يعبر عنها.

٤- ورود ظواهر لغوية تظهر بشكل حتمي، أو ضروري نتيجة لهذا التفاعل الحادث بين رؤية الشاعر النابعة من الذات وبين الرؤية الإنسانية المعاصرة، ومن هذه الظواهر:

- القافية الساكنة تشكل بعدًا إيقاعيًّا لازمًا.

- القافية المتحركة، (وبالأخص في قصيدة التفعيلة) تتقاطع مع غيرها، لتشكل التنوع والاختلاف اللازمين لحركة الإيقاع.

- المفردة اللغوية تمثل بعدًا نفسيًّا حاضرًا مختزلًا لفاعليات إنسانية.

- الحس الحداثي يتوافر بصورة لافتة في الإضافات المنتشرة في النصوص.

- والشاعر يزاوج بين لغة الرمز، وبين لغة التفرير، ويضفر بينهما في أحايين كثيرة.

من هذا المنطلق نستطيع أن نقف على تحولات النص رؤيته الخاصة عند رشيد درباس، وبالأخص من السمة الأخيرة وهي المراوحة بين لغة الرمز ولغة التفرير، وهي بارزة في النصوص، وبل

تشكل الوجه الأساسي فيها بل إننا من العناوين التي يطرحها الشاعر (عناوين المجموعة الشعرية) -همزة وصل - الرمل ديوان النخيل- بدأ الشاعر منحازًا بصورة أساسية إلى الرمز، انحياز يوحي لأول وهلة بطريقة عمل الذاكرة الشعرية لدى الشاعر من ناحية، وبطريقة، أو برؤية الشاعر للأشياء والعلاقات التي تشكل النص الشعري من ناحية أخرى. ولذلك فإنه من هذه المقدمة النظرية لإبداع رشيد درباس أحب أن أطرح رؤيتين حول استخدام الشاعر للرمز وهما يمثلان التوجه العام والخاص لدى الشاعر في تناوله العلاقة بين الشكل وبين الدلالة.

الرؤية الأولى - الرمز بمعناه الكلي:

الشاعر رشيد درباس يقدم الرمز في شعره بالمفهوم الكلي، وهو مفهوم يعتمد على تقديم، أو إطلاق الرمز، الشعري أو اللغوي إطلاقًا عامًّا في القصيدة ثم يورد كل الدلالات الخاصة تابعة لهذا الرمز وبمعنى آخر أن الشاعر يجعل من الرمز بناءًا كليًّا للنص، ثم يقدم الدلالة في صورة استعارة تصريحية، يبدو المعنى الأصلي فيها متواريًا خلف المعنى المقدم، وهذا يتيح للشاعر قدرًا كبيرًا من الدلالات العامة والخاصة، ويعطيه مساحات شاسعة من الرؤى والتأملات حول موضوع النص كذلك تأتي الصور الشعرية تابعة للرمز الأصلي، وتكون في الوقت نفسه جزءًا من المكون العام للنص، أو من البناء العام للنص. وهذا بدوره أيضًا يطرح مساحة دلالية تتوازى مع دلالتين مهمتين في النص:

١- دلالة الرمز، ويمكن أن تدرك منفصلة.

٢- دلال المعنى الثاني، ويمكن أيضًا أن تدرك منفصلة ومتداخلة مع دلالة الرمز، بين هذين الدلالتين يتحرك الشاعر ليقدم اتحادًا للدلالة يجمع بين أطراف المعنى الكلي للرمز.

الرؤية الثانية – الرمز بمعناه الجزئي:

وهذا الأسلوب يعتمد فيه الشاعر على جلب عدد كبير من الدلالات الرمزية الخاصة بموضوع النص وهي رموز أو دلالات رمزية تأتي بطريقتين:

– الأولى، رموز ليس بينها وبين بعضها رابط منطقي.

– الثاني، رموز تنتمي لحقول دلالية واحدة.

ففي نص (الرمل ديوان النخيل) يجمع الشاعر الرموز الآتية:

– النخيل – الصحراء – الرمل.

– عين الخليل – الكثيب – الريح.

– البوادي – الثغور.

– الكتابة – الشعور – مرساة العصور.

– أشجار – السراب.

– الوريد – الجدول – الزمان الأول.

هذا الربط على سبيل التمثيل يقدم نموذجًا الذي يجمع بين طريقة عمل البنية وطريقة عمل الأسلوب فيما يختص بتقديم تقنية الرمز على مستوى النص، وهو يقدم الرمز بمعناه الجزئي بطريقته في الكتابة فيحشد للدلالة رموزًا تتصل بحقل واحد، ثم يتم الانتقال بين هذا الحقل (الطبيعة على سبيل التمثيل) إلى حقل آخر (الإنسان والكلمة) ثم يربط بينهما ليقدم صورة للوطن /الواقع/ الإنسان

القيمة في آن واحدة.

السياق العام والخاص:

من الظواهر الفنية اللافتة في شعر رشيد درباس أن يجمع بين السياقين العام الذي يمثل القيمة الباقية سواء كان سباقًا قوميًّا أو إنسانيًّا، أو موضوعيًّا من خلال رؤية الذات لهذا السياق، وفي الوقت ذاته ينجح في تضفير هذا السياق بالعلاقات المختلفة التي تقدمها الذات، وتطرح من خلالها رؤية واحدة متعددة الأبعاد، والإنسان وهو بهذا الربط يكون أمينًا في تقديم صورة الواقع كما يراه، وصورة الإنسان كما تتجلى فيه طموحات هذا الواقع الذي يبدو أليمًا في أحايين، ومبشِّرًا في أحايين أخرى.

والشاعر يطرح مفردات ليكون منها قاموسه الشعري في السياقين السابقين، هذه المفردات تمتد لتشمل التاريخ، والطبيعة والذات، والآخر، والمواقف، والذاكرة الذاتية بما تحمل أو بما تعبيء في داخلها من أحزان وأفراح، ومن انتكاسات وأحلام.

نعود مرة أخرى إلى الطرح النقدي الذي قدمه الدكتور / حامد أبو أحمد في كتابه السابق عن الوعي ومكوناته، والبنية وانساقها داخل هذا الوعي، واتحاد ذلك في رؤية شعرية واحدة لنقدم من خلال ذلك شكلًا مقترحًا لهذه المفهومات النظرية عند الشاعر رشيد درباس:

١- الشاعر يمثل بصورة أمينة صورة التراث الشعري العربي.

٢- الشاعر يمزج بين أساليب الكتابة الكلاسيكية الرصينة وبين أساليب الكتابة الحداثية الواعية.

٣- الظواهر الفنية التي يقدمها الشاعر منها ما يعود إلى ذاكرة النص العربي، ومنها ما يعود إلى وعي الشاعر بالنص والتشكيل الفني فيه.

٤- هناك انسجام واضح بين مكونات الرؤية عند الشاعر.

٥- هذا الانسجام يمتد ليشمل البناء النصي.

٦- هناك تقارب واضح -أيضًا- بين تشكيل قصيدة التفعيلة وبين تشكيل قصيدة العمود الشعري.

٧- الشاعر على وعي كبير بواقع وطنه وبلده.

٨- الشاعر أمين على أحلام الذات وعلاقتها بالآخر.

وأخيرًا فإن ما سبق الإشارة إليه محض مقدمة نظرية ومنهجية موجزة يتبعها لاحقًا رؤية تطبيقية تتناول الظواهر السابقة بمزيد من التفصيل يخصص لها فصل كامل في كتاب نقدي لاحق يليق بشاعر جاد في قامة شاعرنا الجليل رشيد درباس.

؟؟؟؟؟؟؟؟

منتدى طرابلس الشعري
عنه: عبد الكريم شنينة وشوقي ساسين

هل يمكن قلمًا، على عُجالةٍ من حِبْرِهِ... أو تؤدة، أن يضعَ بين أيدي القصائدِ، أيِّ قصائد، خطوطًا شبيهةً بتلك التي تُرْسَمُ فوقَ الطرقاتِ لتحديدِ المساربِ والاتّجاهات؟ وهل يمكنُ أصلاً أن يُحدَّدَ للقصيدةِ اتِّجاهٌ بعينِه أو تُقَيَّدَ بقراءةٍ معيَّنة؟ أمَ انَّها كالعاصفةِ تهبُّ ساعةَ تشاءُ حيثما تشاء كيفما تشاء؟ حتى إذا اغتلى مهبُّها مرَّةً بعدَ أخرى ونأى عن حروفِها المعنى الواحدُ، أو الوجهةُ الواحدة، فتعدَّدَت قراءاتُها... باتَت أكثرَ حضورًا وأشدَّ تأثيرًا وأوسعَ ديمومةً؟

أسئلةٌ تعِنُّ على خاطرِ كلِّ ريشةٍ، إنْ هي حاولَت التعرُّضَ لنصٍّ شعريٍّ، نقدًا أو تقديمًا. فكيفَ بها حينَ يغدو مدادُها متشابهًا كما من محبرةٍ واحدةٍ، في النصِّ وفي التقديم؟ بل كيفَ يمكنُ أن تختصرَ كلماتٌ قليلةٌ مسيرةً من الدّأبِ المتواصلِ على إضافةِ شيءٍ ما إلى بنية القصيدة الحديثة شكلًا ومقارَبات؟؟ نقول هذا لأنَّ صاحبَ المجموعة يُشهرُ انتماءَه إلى تجربةٍ شعرية طويلةٍ تنكَّبَها منذ عين يعقوب مسقَطِ رأسه، حيث تمرعُ الخضرةُ الأنفاس... إلى الميناء

مسقَط قوافيه، في رحاب مدرسة مار الياس... إلى منتدى طرابلس الشعري حيثُ المصهرُ الذي يصفّي القصائد من رَغامِ الحروف... محطّاتٌ تشبع فيها وجدانُه من اثنين: الأرضِ والتراث؛ فصارا عنده بئرًا يمتاح منها أدواته ورؤاه؛ حتى ليمكن القول إن بطاقة هويته الشعرية مصنوعة من لحاءِ صنوبرة وحروفها مطبوعةٌ برذاذ وملح. تجربةٌ ترى أنَّ المسألةَ التي ينبغي لكل شاعرٍ أن يطرحَها على كلماتِه هي: كيفَ أكتبُ لا ماذا أكتب. فالمعاني منثورةٌ على الدروبِ كالحبوبِ على البيادر، مشاعٌ للطيرِ تأخذُ منها ما تريد على وُسعِ المشتهى؛ لكنَّ الطيورَ ليست كلُّها غرّيدةً على أفنان. فبعضٌ من القمحِ يصيرُ صُداحًا وقليلٌ من المعاني يصبحُ شعرًا. تجربةٌ ترى أن الحداثةَ ليست في شكلِ الشعر، ولا حتّى في موضوعاتِه، المعاصرةِ أو القديمة، بل في تدجينِ الشواردِ من الأفكارِ والحالاتِ والمشاهد، والانتقالِ بها من الحينِ إلى الزمان. إنَّها تجاوزُ الوقتِ والمكانِ معًا عبرَ لوحةٍ شعريَّةٍ متناسقةٍ متراصّة، تشبهُ إلى حدٍّ ما البيتَ الشعريَّ الواحدَ الذي أحبّته العربُ وسمَّتْهُ بيتَ القصيد. إنَّها محاولاتٌ مستمرَّةٌ بلا انقطاع لقولِ ما لم يُقَلْ بعد؛ قد ينجحُ فيها الشاعرُ أو لا، ولكن بحسبِه أن يظلَّ قيد التجربة الشعرية... أن «**يمشي وكلُّ لفتةٍ تحثُّه للأصعَبِ**»؛ أن يبقى الشعرُ على شفتَيهِ قصيدةً لا تكتمل.

ليس الإبداعُ الشعري في حقيقته سوى التقاطِ الأشياءِ كما هي، ثمّ بثّها كما ليست هي. عمليَّةُ تحويلٍ أو تخمير، أدواتُها: اللفظةُ الطاعنةُ في صوابِها الخارجةُ على رتابةِ قاموسِها، والصورةُ التي تتبخترُ بكاملِ ألوانِها على منصّاتِ السطور، والدَّهشةُ الكامنةُ

تحتَ ظلالِ الحروف. ولعلَّ هذا المسار من خارجٍ إلى داخلٍ ثمَّ إلى خارجٍ... هو اللونُ الطاغي على قُزَحِ قصائد الشاعر. فمعظمُ ما في دواوينه صورٌ حسِّيَّةٌ يراها بأمِّ العينِ واعيًا، أو بأمِّ الذاكرةِ في اللاوعي؛ فيصوغُها على وَفْقِ تجربتِه. هو لا يكتبُ في موضوعٍ جاهز كما يفعلُ الشعراء الوصّافون، بل في تجربتِه الشخصيةِ والوجدانية مع هذا الموضوع. ولكم مثالٌ على ذلك قصيدته «عين يعقوب» حيثُ جعلَ الطبيعةَ في تلكَ البلدةِ مرآةَ شخصِه وأحاسيسِه لا موصوفًا خارجيًّا فحسب.

لكنَّ رشيد درباس لا يقف عند مواضع بعينِها. إنه موزَّعٌ في أماكنَ لا حصرَ لها: من النيل حيث «الخضرة ترتادُ الزرقه»، إلى بيتَ لحمَ حيث «مآلُ الخراجِ ونضيجُ الحصى»، إلى البحر ما بين يافا وعكا، حيث «يشرئبُّ المَوجُ حتى يجذب الشمس إليه بتلابيبِ الشعاع»، إلى الجنوب الذي هو «همزةُ الوصل» وهمزةُ القطعِ في آنٍ معًا، إلى بغداد حيث لا تُكتَبُ فيها «تباريجُ الخليج» إلا «بالحبر الذي ينزفُ من وريدنا كما يقول الأقحوان» إلى الصحراءِ التي فيها «الرملُ ديوانُ النخيل»، إلى جبّة بشري ووادِيها المقدس الذي يعاكسُ قواعدَ الزمان، فيمسي في شيخوخةِ مائه أبا عليّ.

والجغرافيا عنده تمتدُّ أيضًا من تخومِ الأرض إلى مساحة الإنسان في وجع مصيره وأعراسِ أمانيه. ولعَلَّ أوفى صورةٍ عن هذا التمددِ الوجداني، قصائدُه في أبيه وأمه وزوجته وأبنائه والحفدة، وفي بعضِ أصدقائه، مما تزخرُ به دواوينُه عناوينَ وأشعارًا. رشيد درباس هذا الموزَّعُ أينما كان، حَتّى في بحثه عن العُمْر لا يجد إلا

الحدودَ والإطار، فيعود إلى المرأةِ يسائلها «لماذا تَجعَّدَتْ» وإلى الرحيل يسائله لماذا تَعَدَّدَتْ «أشكالُ الماءِ الحسنى». كأنّي به –على إيقاع المكانِ– يغني الرملَ والماءَ والسنديان... والنّاسَ والأهلين... وكلَّ شيء.

أيكونُ ضياعُ الأرضِ تباعًا منذ تفتُّح وعيه سببَ الإلحاح الدائم عنده على مكانٍ ما يُسْند إليه شَعْرَه؟!

هذا الشاعر الممسك بالترابِ والتراثِ حيثُ تقيم الجغرافيا إنما يعيد صياغتهما على خلاف الأصل، فيلتقط بعينَيْهِ ما حولَه من أنيٍّ وعادي وملموس، ثمَّ يروحُ ينقّيه ما استطاعَ حتى يستخرجَ منه معدنَ الشعرِ بريئًا من الزوائدِ والأرتبة. وكمَنْ يوطِّنُ حسابَ ذاكرتِه في مصرفِ رؤًى حديثة، يجعلُ شعره رموزًا موحية تثير في الذاكرة فوحًا ما: نادرة من نوادر التراث... مشهدًا من مشاهد الطبيعة... حادثة من حوادث الحياة اليومية... قاعدةً علميةً ما أو اكتشافًا معاصرًا أو مصطَلحًا قانونيًّا. هذا لا تتولّاهُ في يده آلةُ تصوير بل تراه يرمي كلمة ليبعث في الذِّهن أخيلة، هي بالحقيقة حولنا وفينا. ومثلَ عود الثقاب الذي هو سبب اشتعال النار، حتى إذا احتدم اللظى نُسِيَ السبب وبقيت حالة الاشتعال وحدها، هكذا الشعر عندَه يوريه الملموس الذي يصيرُ رمادًا يختفي في قصيدةٍ تحترق ألفاظها والصور. ذلك أنه مؤمن بأنَّ الشعرَ المجرَّدَ هو في حقيقته مزيدٌ على ما قبله، إذ ليس في وسعِنا اليوم أن نكرِّرَ ما قاله السابقونَ من أقدمين ومحدثين، بالأدواتِ نفسِها أو بما يشابهها. إنَّه يبحثُ في الشعر عن تعديل جيني في الأدواتِ والمقاربات، كأن تصبحَ خيوطُ العنكبوتِ

في الحكاية القديمة شبكةَ إنترنت، والحرباءةُ معرضَ أزياء... وهكذا دواليك، حتى يبنيَ لابن المقفع ودو لافونتين جسر عبورٍ من زمانيهما وقصصهما الخيالية إلى مكتشفات العصر الحديث. هذا المتناوَلُ يُبقي الصورةَ الشعريَّةَ مشدودةً إلى أرضِها فلا تهوِّمُ في فضاءٍ سديميٍّ خالٍ من الأوكسجين.

ومن خصائص شعره الالتزامُ التامُّ بالأصول في اللغة والعروض، مقابل التجديد الحرِّ في الصور، عبر السعيِ إلى ترسيخ علاقاتٍ جديدة بين المفردات، واكتشاف وشائج قربى بين القديم والمعاصر، في صيغٍ تؤدي إلى خلق حالةٍ فنية موحية تخلعُ فيها الكلماتُ ثيابَها المألوفةَ وترتدي زيًّا ذا نسجٍ حديث.

جملتي رجعٌ لإملاءِ الكواكبْ
فاقرؤوا الضوءَ كما تكتبُه الشمسُ ويتلوهُ القمر.

ولعلَّ سمةً أخرى عنده حريَّةٌ بأن تُذكرَ هي انتقاله من الوجدانيّةِ الغنائية في دواوينه الأولى إلى الهدوءِ العميقِ الذي باتَ يستشري في مفاصلِ قصائدِه المتأخرة... أهي الخبرةُ التي اكتنزَ أم السكينةُ التي تخلِّفُها الخيباتُ؟

وبعد،

باختصار، إنَّها المجموعة غيرُ الكاملة لرشيد درباس. وها هو يغرِّدُ فيها على حساب موقع تجربته الشعورية، عبر شبكة التواصل اللغوي، بكلمات مشحونة بالانفعال، ومتوالية سطور غنية بالصور الفنية والحالة الوجدانية والصَّنعةِ الشاعرية. رصيده فيها الأدواتُ المتبعة في طرق الإسناد النحوية، من تقديم وتأخير، وتعريف

وتنكير، وفصل ووصل، وتأكيد وقصر، وجمل إنشائية تعانق أخواتها الخبرية، كجواز سفر إلى ما تضجُّ به السطور عن أقاليم الأعماق. في هذه المجموعة يستعملُ الشاعرُ الأدواتِ تلكَ ليستنسخَ الوجودَ بكلماتٍ وأبيات. يغربلُ تجربتَه الوجدانية والشعريةَ ليخلصَ إلى أنَّ الإنسانَ، الكائنَ الأولَ، على هشاشته جميلٌ في تنوُّعِه. وهو في هذا يشي بأحوالِه كلِّها طفلاً وفتًى وشابًّا ثمَّ كهلاً فشيخًا. وبمقاماتِهِ كلِّها منذ عين يعقوب وقاهرةِ المُعِزِّ حتى مدينة الميناء، وبانتسابه إلى منتدى طرابلس الشعري حيث تشكَّلَتْ تلك التجربةُ الشعريَّةُ التي تغلي جواهرَ التراث وكنوزَ مبدعيه، وتُغني الحداثةَ وما بعدَها بثَقبِ دواةٍ أسودَ يلتهمُ أفقُ جِدَّتِه مجرّاتِ مشاعرَ ومداراتِ معاناة؛ وبمستعِراتِ ألفاظٍ أنهكتها مادَّةُ خطوطِها فانفجرت، ناشرةً أشعَّةَ معانيها من وراءِ مدادٍ كالحٍ، تُمسكُ جاذبيَّةُ طاقتِه بحركاتِ نجومِه وكواكبه، وبصفحاتٍ تلتقطُ شاشاتُها، كصحونٍ لاقطة، ما تقادمَ من بثٍّ وتجدَّدَ من إرسال.

لا نكتمُ القرّاءَ سرًّا أنَّ رشيد درباس، في هذه الأضاميمِ الممهورةِ بتوقيعِ تجاربِه، لا يعوِّلُ على ما فات من وقتٍ وتلاشى من أمنيات، بل على المضنونِ به فنًّا لا يشيخُ بمرورِ الزمنِ ولا تُشَقُّ له عصا طاعةٍ لأنَّه الثابتُ لغةً والمتحوِّلُ إبداعًا.

طرابلس في ٢٠/ ١١/ ٢٠١٨

هذا المدى كالصدى

شوقي ساسين

«النقيب رشيد درباس في مقامه الجديد قبالة البحر»

أفْـــقٌ أمـامَـــكَ يَـعْـرَى ... فانسجْ وأَلْـبِـسْـــهُ شِـعْرَا
وشُـــــكَّ فيـــه القـوافي ... غَـــمـامـةً طـــيَّ أُخْـــرَى
وَاحْـفِـرْ على المـوجِ مَـدًّا ... مِـن الخَـيـــــالِ وجَـــــزْرَا
وانْظرْ،لعـــــلَّ شـــــراعًا ... بِـنَـسْـــــمـةٍ يتســـــرَّى
أنفـــاسُـــها هـلْـهَـلَتْـــه ... دونَ الـجـزيـرةِ سِـتْـرَا
والـبُـعـــدُ خـــبَّـــأَ فيه ... ســـــرًّا، وكـــشَّـفَ سِـرَّا
مـضـى الـــوداعَ وأذْكـــى ... عـلـى الـيـراعـــةِ ذِكـــرَى
فـخَـــاطَ لـلـشّـمـسِ ظـلًّا ... وخـطَّ فـي الـبـــالِ سَـطْرا
هـذا المدى اجْعَلْـهُ مِثْلَ ... الصَّـدى... مِكَـــــرًّا مِفَـــرَّا
وَاحْـــدُ القصائدَ ترجِـعْ ... إليـكَ بالشُّـــهْبِ أسْـــرَى
فـإن مشـى لـــكَ شَـــطٌّ ... وفـــي رؤاكَ تـــدَرَّا
فـإنّـــمـا أنـــتَ مـنـه ... بَحْـرٌ يجـــاورُ بَحْـــرَا

المحتويات

في رشيد درباس عنفوان قامة نخلته وسخاء رطبها
عمر مسقاوي ٣

رشيد درباس... «المزوّر»!؟
طلال سلمان ٩

في رشيد درباس حنين إلى الأمس حيث يعايش الأمجاد
نقيب المحامين سليم الأسطا ١٣

رشيد درباس... هذا الفتى الستيني
زاهي وهبي ١٧

؟؟؟؟؟؟؟؟
الدكتور سابا قيصر زريق ٢١

اللغة والعروض في مجموعة «الرمل ديوان النخيل»
د. أحمد الحمصي ٢٣
قصيدة حرير ظرفك للدكتور أحمد الحمصي ٢٨

المقامة الدرباسية
الدكتور نزيه كبارة ٣١

أنشودة حياة متجددة شعرًا

د. زهيدة درويش جبور ٣٥

قصائد من سحر كأنها الشجن

فيصل سلمان ٤١

نقطة ضوء هي النور وجودًا

عبد الكريم شنينه ٤٥

؟؟؟؟؟

د. محمد زيدان ٥٥

؟؟؟؟؟؟؟؟؟

منتدى طرابلس الشعري ٦٣

قصيدة هذا المدى كالصدى للمحامي شوقي ساسين ٦٩